الأزمات السياسية والأوبئة والآفات ببجاية خلال العصر الوسيط

الأستاذة بوتشيش أمنة
قسم العلوم الإنسانية
كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية
جامعة الجيلالي اليابس – سيدي بلعباس –

Abstract:

Béjaïa as the other Islamic cities know many natural catastrophes, and politic problems, all these problems and catastrophes had social economic, and cultural results and these results are negative and positive like : - the scientific researches especially in medicals for example : new medicines for very dangerous illnesses and diseases.

عرفت بجاية كغيرها من المدن بالمغرب الإسلامي، عدّة كوارث طبيعية وأزمات سياسية أفرزت نتائج وخيمة على كل الأصعدة الاجتماعية واقتصادية وثقافية، كما كان لها بعض من النتائج الايجابية، كتوسيع البحث العلمي في المجال الطبي، فهذا الوضع خلق فرصة البحث عن العلاجات وأدوية لكثير من الأمراض منها الفتاكة كالطواعين ،فمنذ بداية منتصف القرن (5 هـ/11 م)، والمغرب الإسلامي يتخبط في دهاليز الكوارث الطبيعية والآفات، هذه الأخيرة خلفت آثارا سلبية، وتحولات على الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، الذي أدى إلى تدهور وانحطاط الحواضر المغربية، فبجاية1 واحدة ممن لحقها الوهن الاقتصادي والتفكك الاجتماعي، والاضمحلال السياسي، بسبب آفات مختلفة كما كانت للاضطرابات المناخية المتكررة دورا في تدهور الأوضاع ببجاية، كالجفاف وبالتالي انتشار القحط والمجاعات، ما ينتج عنه تفشي الأوبئة ، لكن اذا أرجعنا أسباب هذه الكوارث إلى عامل المناخ، فلا يكون هو السبب الأول والأخير لها، بل هناك أسباب قوية تحرك آليات ظهور هذه الأزمات وهي الاضطرابات السياسية والاستبداد. فالعلامة عبد الرحمن بن خلدون يذهب بقوله على أن كل الآفات والكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب الإسلامي سبقه بطش واستبداد وحروب تمخضت عنها الصواعق التي ذكرناها.

ولكن لماذا أجمعت جّل المصادر والدراسات على بداية هذه الأزمات الطبيعية بمنتصف القرن 5 هـ / 11 م.؟

اقترنت بداية الأزمة والانحطاط بحدث سياسي هام عرفه المغرب الإسلامي بصفة عامة وبجاية بصفة خاصة ألا وهو الزحف الهلالي[2] الذي دفع المجتمع البجائي إلى العجز الاقتصادي ما أدى إلى تغير من مسارهم المعيشي، فالمصادر

تذكر أنه عندما حاصر بنو هلال القلعة [3] ضيقوا الخناق على البجائيين الذي اضطر أمراءها أن يقتطعوا أراضي فلاحية [4]لهم من أجل تجنب أذاهم، لكن كانت نتيجتها تضييق من مساحة بجاية.

كما ستشهد بجاية خلال القرن(6 هـ / 12 م) انعطافات سياسية في العهد الموحدي[5] فسكانها عرفوا في أواخر العهد الحمادي فترة انحلال ومغالاة في اللهو ،فانتشر الفساد فيهم، كشرب الخمر [6] والتسكع والفوضى، مما أدى إلى تذبذب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، لكن تغير الحال عندما آلت بجاية إلى الحكم الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي [7] ،حيث رفضت القبائل الصنهاجية سقوط بجاية في الحكم المصمودي، و على إثرها قصدوا حرب الموحدين، لكن كان جيش الموحدي، هو الأقوى فألحق الهزيمة بالجيش الصنهاجي، وبالتالي انتهى الإشعاع السياسي والحضاري للدولة الحمادية بسقوط عاصمتها بجاية سنة (547 هـ / 1152 م.)

تولى حكم بجاية أكثر من خمسة ولاة تولوا حكمها في أوضاع مختلفة، بين الاستقرار تارة ، والاضطرابات السياسية تارة أخرى حيث شهدت المدينة في عهد الخليفة "عبد الله يعقوب بن عبد المؤمن بن علي"، حركة انتقامية سيرها بنو غانية [8] من الملثمين المتبقين من الدولة المرابطية الناقمين على الموحدين والذين عملوا على تحطيم هيبة وتوازن المصامدة، وبالفعل جهزّ بنو غانية جيشا مسّوما حسب قول ابن الأثير: "مائتي فارس من الملثمين، وأربعة آلاف رجل [9] ،بالإضافة إلى أسطول به اثنين وثلاثون قطعة توجهوا به نحو ميناء بجاية سنة (580 هـ / 1183 م)، في هذه السنة توفي الخليفة الموحدي "يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ" فكان على صاحب بجاية "أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي" أن يحضر مراسم الجنازة وسار معه وجيشه، هذا الظرف أدى إلى خلو بجاية من السلطة الحاكمة فانتهز بنو غانية الفرصة ، وأثناء صلاة الجمعة من نفس السنة حطّ أسطول "علي بن غانية" شاطئ بجاية الذي كان شاغرا من الجيش ، فدخلوا من أحد أبواب بجاية "باب اللوز" الخالي من السور، و تمكن بنو غانية من التوغل أكثر بالمدينة وأحدثوا فيها الخراب ووزعوا ذخائرها وفرقوا أموالها على العرب ممن حالفوهم [10] أمام هذا الوضع، نهض الموحدون لتحرير بجاية من يد الملثمين ، وبعد انقضاء أشهر من سقوط بجاية في يد بني غانية آلت من جديد إلى الموحدين بعدما ساءت أحوالها فانتشرت الأمراض، ونقصت المواد الغذائية التي ترتبت عنها ارتفاع الاسعار [11] وبالتالي غلاء المعيشة فبنو غانية نهبوا كل الذخائر والأموال.

بقيت بجاية تحت ولاية القائد "أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن" ابن عم الخليفة الموحدي "المنصور" الذي استطاع أن يخمد الفوضى والفتن بها. إلا أن حالتها الاقتصادية بقيت في تدهور وتراجع مستمر، فاضطر الخليفة المنصور باستقدام ابن عمه أبي زيد من بجاية وجعل أخيه عبد الله وليا عليها، في هذه الفترة واصل علي بن غانية تجميع قواه من جديد وهذا بتحالف مع عرب رياح و الإثبج كما انضم إليهم قراقوش[12] كما تلقى المدّد من الخليفة العباسي الذي بعث له بها من الشام ومصر.

شهدت سنة (582 هـ / 1158 م) إلى غاية (624 هـ / 1227 م) حروب ومعارك بين الطرفين الموحدي وبني غانية ،كانت نهايتها هزيمة بني غانية وأعوانهم وإخضاع كل جزّر البليار تحت حكم الموحدي هذا الأمر كان بمثابة صاعقة بالنسبة للنصارى حسب ما تشير إليه رسالة الخليفة الموحدي للناصر حين قال فيها: "ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشّد من رشّق النبل وأهول من وقع السيف وأوحش من القطع بحلول الممات" [13] قبل أن يرجع الخليفة "الناصر" إلى مراكش عقد "أبا محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي [14] على إفريقية ،هذه الأخير ستنفصل انفصالا نهائيا عن الحكم ألموحدي، فقبيلة هنتاتة[15] التي ستؤسس دولة بني حفص، وستكون بجاية من ضمن حواضرها.

تحررت بجاية نهائيا من تهديدات بني غانية سنة (624 هـ / 1227 م) على يد أحد أبناء " أبا محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي" وهو "عبد الله بن أبي حفص الهنتاتي" [16] الذي نهض في أواسط سنة (624 هـ / 1227 م) لملاقاة بني غانية وأتباعهم من هوارة[17] هؤلاء الذين تمكنوا من جديد من بسّط نفوذهم، كما الحقوا ببجاية وغيرها من المدن الخّراب والدّمار. فسّار عبد الله بن أبي محمد الحفصي إلى بجاية ،وتم له إصلاح شؤونها، وواصل سيره إلى بقيت الحواضر كمليانة ومتيجة، فأمنها وّولى راجعا إلى تونس في شهر رمضان من نفس السنة[18].

إلى جانب كل هذه الاضطرابات عرفت سنة (624 هـ / 1227 م) نوعا آخر من الاختلال تمثل في وجود اضطراب في الحكم الموحدي، لوجود طرفان يحكمان في مقام واحد ،الخليفة المأمون والخليفة يحيا بن محمد الناصر ابن العادل[19] ،هذا الوضع أدى إلى ظهور فوضى وما زاّد الطينة بلة، هو بطّش الخليفة المأمون، وتمكنه من الانفراد في حكم البلاد ، والتي قضي على عوائدها التي ألفها الموحدون، فنثلا أنكّر مذهب "ابن تومرت"، كما وضع العقائد والآذان بلسان البربري[20] وزاد بطّشه بعدما قتل بعض من الموحدين بمراكش وخصوصا من هنتاتة ،هذا الأمر أدى إلى انفصال أبي زكرياء أخو عبد الله بن حفص الهنتاتي، الذي كان واليا على قابس الواقعة في الجهة الشرقية للبلاد عن الخلافة المؤمنة سنة (626 هـ / 1229 م)[21] كما واصل حركته التوسعية لضم حواضر المغرب ،وبالفعل تمكن من بسط نفوذه على البلاد وأسّس بذلك الدولة الحفصية.

ضم أبو زكريا إلى أعماله بجاية، وجعل ابنه يحيا واليا عليها الذي سير شؤونها على أكمل وجه، وفي سنة (675 هـ / 1277 م) سكان بجاية حياة فوضوية فيها واليها "ادريس بن عبد الملك الغافقي" [22] الذي خرب كل منجزات من سبقه من الولاة، كما فرض جبايات جديدة على الحرفين والصناع والتجار والعمال الذين تضايقوا من وجوده فكانت نهايته القتل سنة (677 هـ / 1279 م) ورمي برأسه إلى الغوغاء[23]

أما سنة (681 هـ / 1283 م) عرفت فيها بجاية ولادة فاجر لا يملك من خصال أبناء الملوك شيئا، وهو "أحمد مرزوق بن أبي عمار المسيلي" [24] الملقب بالدّعي. الذي نشر الفوضى والفساد والظلم في بجاية وأحوازها ،مدة ثلاثة سنوات حيث كانت كلها حروب ومعارك وخيانات، لكن سرعان ما استرجع الأمير أبو حفص عمر بن المولى الأمير بن

زكريا بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص (المستنصر بالله) ملك أسلافه وتم له التخلص من الدّعي سنة (683 هـ / 1285 م) ،وفي نفس السنة شهدت بجاية تغيرا في وضعها السياسي وتحولا كبيرا. وتقاسما كل من المستنصر بالله وأبو زكريا ابن إسحاق ابراهيم [25] أعمال إفريقية، فالمستنصر بالله استولى على الجهة الشرقية عاصمتها تونس، أما الجهة الغربية وعاصمتها بجاية قسنطينة أخذها أبو زكريا بن إسحاق إبراهيم ،هذا الأخير كان يقسم السنة بين عاصمتيه[26] ،كما رغب بعدما استقر ملكه، في التوسع وضم باقي المناطق الحفصية، فتوجه إلى تونس عاصمتها ملك لابن عمه المستنصر بالله.

وبذلك شّهد نهاية القرن (7 هـ / 13 م) نزاعات سياسية داخل الدولة الحفصية التي انقسمت إلى شطرين، كما عرفت بجاية بداية القرن (8 هـ / 14 م) تحرشات الزيانية التي بادّر بها السّلطان الّزياني عثمان بن يغمراسن، الذي استغل غياب أبي زكريا من بجاية فزحف إليها (686 هـ / 1288 م) لكنها استعصت عليه.

ففشل عثمان بن يغمراسن من اجتياح بجاية ، أصّر سلاطين الزيانيين على ضّم بجاية إلى ملكهم. فلقد قام السلطان أبي حمو بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان من التمكن في حصار بجاية طويلا [27] ،لكنه فشل في إخضاعها، ثم واصل ابنه أبو تاشفين المحاولة، إذ وجه إليها قوات ضخمة لمنازلتها لكنها منعت عليه فلجأ إلى بناء مكان بسوق الخميس بوادي بجاية يكون بمثابة قاعدة لتجهيز الكتائب ومحاصرتها أكثر، فاشّتد بذلك حصار بجاية ،مما أدى إلى تّدهور الأوضاع بداخلها حيث نتّج عن هذا الحصار غلاء في الأسعار واضطرابات أخرى في أحوالها، لكن سكان بجاية صمدوا رغم الخناق الذي فرضه عليهم الزيانيين، فلم يتمكن أبو تشفين من مواصلة الحصار، فأعرض عنها وولى راجعا، وعليه ورغم كل محاولات التفنن العسكري والحربي الذي استعمله سلاطين الزيانيين إلا أن كل مساعيهم في ضم بجاية باءت بالفشل حسب ما جاء في نص التنسي: "لقد فشلت جهود بني زيان كلها لضم المدينة لممتلكاتهم"[28].

لم يكن الزيانيون وحدهم يرغبون في امتلاك بجاية بل حتى المرينيون لن تسلم بجاية من إصرارهم المتكرر في إخضاعها إلى ملكهم ،ففي سنة 748 هـ تمكن السلطان المريني أبو عنان من الاستيلاء على بجاية لكنه لم يتمكن من السيطرة عليها طويلا لأن أمراء الحفصيين استطاعوا جمع شمل كل أعمال الدولة الحفصية من جديد. لكن رغم إعادة شمل أحواز الدولة الحفصية منتصف القرن(8 هـ / 14 م)، إلا أن القرن (9 هـ / 15 م) عرف افتراق كلمة الأمراء وشتات شملهم، هذا الوضع شجع النصارى في استغلال فرصة تباعدهم، فكانت النتيجة أنهم شنوا عليهم حربا انتقامية.

تعرضت بجاية للغزو الإسباني سنة (915 هـ / 1510 م) وبقيت مستعمرة إلى غاية استنجاد أمرائها بالإخوان عروج وخير الدين بربروس ،اللذان استطاعا أن يقطعا دابر الكفر قرب بجاية سنة (961 هـ / 1556 م)[29].

وعليه نستنتج من كل ما سبق استرساله من محطات سياسية مضطربة في سيرورة مدينة بجاية، على أنها في كل مرة على وضع إما في حالة حرب أو حصار أو فساد أو فوضى، إلا وتراجع اقتصادها و ساء حال ساكنيها جراء تعرضهم

للأمراض والمجاعات والأوبئة وغلاء الأسعار وصعوبة العيش، وهذا كله بسبب الفتن السياسية حسب ما أكدّه لنا عبد الرحمن بن خلدون حين يقول: "عن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبّب فيه إما المجاعات فليقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في الآخر (الدول) من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فليقل احتكار الزّرع غلبا".

وعليه إذا قّل الزّرع أو احتكر توقع الناس المجاعة والعجز للوصول إلى قوتهم ، وبالتالي تكثر نسبة الموت وتفشي الأمراض ويواصل القول عبد الرحمن بن خلدون ليعطينا أسباب الموت فيقول: "وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات أو كثرة الفتن والاحتلال فيكثر الهجر والقتل أو وقوع الوباء، وسببه في الغالب فساد الهواء وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة"[30] وبذلك يكون بن خلدون أدرج كل المعطيات.

أفادتنا كتب التاريخ والرحالة أن مدينة بجاية كانت تجتاحها من فترة إلى أخرى أنواع عديدة من الآفات والكوارث الطبيعية المتمثلة في الجراد، النار، الريح، الغرق، الحّر الشّديد، السّموم والجفاف – سيول وفيضانات – الأوبئة والأمراض والطواعين والمجاعات. فمثلا سقوط أمطار غزيرة تؤدي إلى فيضانات، وقلتها أو حتى نذرتها تأتي بالجفاف فكلا الحالتين مضرتين بالحياة الاقتصادية للمدينة وبالتالي نقص في الإنتاج الزراعي هذا جراء الكّف عن الفلّح ،كما ذكر لنا عبد الرحمن بن خلدون مما أدى إلى غلاء في المعيشة وظهور طبقة مهمشة كالمتسولين والمتشردين والعاطلين واللصوص وقطّاع الطرق ،الذين يهددون استقرار المدينة فتنتشر الفوضى، وحتى أنه يصل الوضع إلى ظهور المجاعات، هذه الأخيرة التي أنهكت المجتمع البجائي لعهود طويلة.

وفي سنة (524 هـ – 525 هـ/1229 م – 1231 م) أصاب المغرب القحط والجفاف [31]. كما يذكر لنا ابن الزيات التادلي عن مجاعة حدثت في العهد الحمادي بسبب الجفاف إذ يقول: "... كنّا ببجاية فأصابتنا مجاعة شديدة.."[32] وفي سنة (616 هـ – 619 هـ/1216 م – 1280 م) انتشر القحط وعمت ببلاد المغرب مجاعة شديدة [33].

كما أشار الغبريني إلى كرامات بعض الفقهاء ،وفي الوقت نفسه يحدثنا عن الجفاف الذي أصاب سكان بجاية فيقول على لسان أحد الفقهاء التابعين "أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن ابراهيم الحر إلى التجيني" [34]: "...قال كنت ببجاية فأصاب الناس جفوف عظيم، وقلت المياه، وجفت امسيون وصل الزق إلى أربعة دراهم، وكان الناس يملؤون من الوادي الكبير..."[35].

فالملاحظ مما ذكر أنفا عن القحط والمجاعات التي عاشتها بجاية، كلها مقرونة بالجفاف الذي نتج عن تذبذب مناخي من جهة، ومن جهة أخرى ظهور أوبئة وأمراضا مثل الطواعين الفتاكة ،التي تعرفها الأمم والحضارات منذ الأزل

البعيد، فما هو مفهوم الطاعون؟ وماهو عدد الطواعين التي حلت ببجاية؟ وهل كانت هناك تدخلات لعلاج ومكافحة هذا الوباء الفتاك؟

الطاعون "هو مرض عام للناس قتّال في الغالب" [36] وعرف في العصر الوسيط باسم الوباء العظيم أو "الطاعون الجارف"[37]. يصف لنا "ابن أبي حجلة التلمساني" هذا الوباء فيقول فيه:

أرى الموت بالطاعون عمّ صغارنا وخصّ من الأعجام شيخا معظّما

فما كان موت الركّن فيهم بهيمن ولكنّه بنيان قـــوم تهـــدّما[38]

ومنه نخلص من هذين البيتين أنّ الموت هو نتيجة حتمية للطاعون ،حصد أرواح الناس من جميع الأعمار. فهو بالتالي خطر ينخر في جسم الإنسان خاصة الرئة حسب قول عبد الرحمن بن خلدون: " فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة..." [39] ، والفساد يقصد به فساد الهواء والمياه والطعام، الذي ينجم عنه تّسمم الجسم وارتفاع الأسعار والزلازل مثلما حصل بتونس سنة 847 هـ[40] .

لهذا الوباء أنواع عديدة منه الطاعون الخارجي والطاعون التعّفني والطاعون الرئوي والطاعون الأسود أو ألنزيفي، والطاعون الدوار[41]، وكل هذه الطواعين تؤدي إلى الهلاك لأنها فتاكة لاحتوائها على جراثيم وتعفنات وصعوبة في التنفس وجفاف الجلد وارتفاع درجة حرارة الجسم ونوبات وتّصلب الشرايين .وعليه نهاية كل هذه الأعراض الموت الأكيد.

أما بجاية فلم تسلم من هذا "الوباء" فيمكن أن ندرج الطواعين التي عرفتها بجاية في الجدول التالي:

السنة	وباء الطاعون	المادة العلمية المعتمدة
635 هـ – 1237 م	X	ابن أبي زرع روض القرطاس – ص 255.
693 هـ – 1294 م	X	ابن أبي زرع روض القرطاس – ص 409.
714 هـ – 1315 م	X	مفتاح خلفات – نفس المرجع – ص 431.
748 هـ – 749 هـ/1347 م – 1349 م	X	ابن مرزوق – المسند الصحيح – ص 265. ابن قنفذ القسنطيني – أنس الفقير وعز الحقير – ص47.
844 هـ – 847 هـ/1440 م – 1443 م	X	الزركشي – تاريخ الدولتين – ص 141.

يتضح خلال هذا الجدول أن الطاعون له دورة سنوية يعمّ البلاد كل عشرة سنوات أو خمسة عشرة سنة حتى خمسة وعشرون سنة ،حسب ما جاء عند حسن الوزان إذ يقول: "ويظهر الوباء في البلاد البربر على رأس كل عشر سنوات أو

خمسة عشر سنة أو خمسة وعشرين سنة"[42]، فهذا الإحصاء يبين بأن هذه الكارثة المتمثلة في الطاعون الذي يهدد الناس من فترة إلى أخرى لا بدّ من محاربته وإيجاد حلول للقضاء على النتائج الوخيمة التي تنتج عنه.

حاول الأطباء البحث والتوصل إلى علاج المرضى منه، فجمعوا كل خبراتهم في مجال التطبيب فتوصلوا في الأخير إلى بعض الحلول تحدّ من انتشار الوباء أكثر، تمثلت في إيجاد دواء عبارة عنّ مرهم ذو استعمال خارجي عن طريق الفم لشربه وهذا الدواء اسمه "الطين الأرميني "ينفع أصحاب الطواعين إذا شرب منه أو طلّي عليها"[43].

وتواصل الاهتمام أكثر في هذا المجال للقضاء نهائيا من تهديدات الوباء العظيم، أما بقية الآفات كغلاء الأسعار نتيجة لتراجع الانتاج ألفلاحي والصناعي ففي سنة (537 هـ – 547 هـ/1140 م – 1145 م) عرفت بجاية هذه الظاهرة التي عمت كل مناطق بلاد المغرب بسبب تغير وضعها السياسي، ففي فترة الحكم الموحدي، حيث يذك ابن أبي زرع في الذخيرة ،انه في السنة (617 هـ / 1212 م) كثرت الفتن والفوضى، مما أدى إلى ارتفاع في الأسعار وّزحف الّجراد في كامل بلاد المغرب والأندلس[44]، كما شهد القرن (7 هـ / 13 م) إتلاف في المحاصيل بسبب الّجراد الذي عمّ بجاية وتونس[45].

وفي عام (750 هـ / 1327 م) ،تمكن الزيانيون من فرض حصارا على بجاية من أجل إخضاعها لبقية أقاليمهم، فكانت نتيجة هذا الحصار غلاء الأسعار حتى وصل الأمر إلى نفاذ المؤن من سكان بجاية فلم يجد ما يقتاتونه، [46] وما زّاد معاناتهم أيضا زحّف الجّراد الذي لم يبق على الأخضر ولا اليابس [47]، في حين كانت تشهد المدّن المغربية كبجاية غلاء بسبب خروج الجيش للحرب ، حيث ترتفع أسعار المواد الغذائية ويصبح المّد سعره مرتفع، [48] هذا ما حصل في عسكر السلطان الحفصي عثمان سنة (866 هـ / 1461 م)

وعليه نستنتج مما سبق أن كل الكوارث والآفات التي عرفتها بجاية تمخض عنها جملة من النتائج السلبية على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وحتى الديني، فإلى جانب تقهقر الانتاج الزراعي وتراجع نسبة الفلاحين الذين تخلوا عن الإفلاح واللجوء إلى الهجرة إلى مناطق آمنة للبحث عن مورد آخر ومعظم المغاربة هاجروا إلى الأندلس فارّين من الاستبداد ومن الكوارث الفتاكة وما يؤكد ذلك قول عبد الرحمن بن خلدون: "وانتفض عمران الأرض بانتفاض البشر فخرّبت الأمصار والمصانع ودرّست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وتبدل الساكن".

نجد أيضا أن تلك الطواعين التي مرّت بالمغرب الإسلامي بصفة عامة وبجاية بصفة خاصة، لم يسلم منها العديد فقد قضى على خلق كثير بل طال كل طبقات المجتمع حتى العلماء والأعيان هلكوا فيه ، وكما انتشر بين الناس الخوف والفزع، فهذا الوباء بات يهددهم من حين إلى آخر، فعدم الاستقرار النفسي هو بحد ذاته عامل من العوامل المشجع للأمراض المزمنة أخرى تهلك الأبدان والعقول ، حتى أنه انتشرت الشعوذة والسّحر بسبّب ضعف إيمان بعض من سكان بجاية الذين يزعمون بوجود قوة خفية تحرك هذا الوباء ،فهذا الهاجس انقص من معتقداتهم الدينية بالإضافة إلى هذا

كله، ظهور فئة غير فعالة – طبقة المهمشين – التي ذكرت سلفا جاءت نتيجة الاضطهاد والاستغلال بفرض الدولة الضرائب والجبايات والمغارم على المجتمع الذي عجّز أمام هذا الاستبداد وبالتالي أفرز ظاهرة اللصوصية ' – قطاع الطرق – والعاهرات والمتسولين ،وكذلك ظهور عادات سيئة كالسكر الذي كان هو الأخر عاملا في زيادة تدهور الأوضاع في بجاية.

رغم هذه العوامل الصعبة التي أنهكت قوى المجتمع البجائي إلا أن مكانة بجاية كحاضرة مغربية ،لم تتزعزع في أوساط العالم الإسلامي وحتى المسيحي، بسبب الآليات والميكانيزمات الضخمة التي تملكها في شتى المجالات، كموقعها الجيوغرافي الاستراتيجي المطل على الواجهة البحرية تستقطب الوافدين من كل حدب وصوب إلى جانب وجود نخب من العلماء المتضلعين في شتى العلوم فبوجودهم حضيت بجاية بأن تكون قطبا لامعا للعلماء وعاصمة للعلوم ومركزا تجاريا ضخما.

– الهوامش

[1]– تم تشييد بجاية على يد الأمير الحمادي الناصر بن علناس سنة (460 هـ – 1169 م) على السفح الشرقي للجبل الذي يشرف على البحر إلى جوار مصب وادي الصومام غربا وبعد سنة من بنائها (461 هـ – 1170 م) انتقل إليها الناصر بن علناس ونقل إليها الناس. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون – العبر وديوان المبتدئ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6، دار الكتاب، اللبنان – بيروت، لبنان 1981 م، ص 203. [1] أعراب بنو هلال أو القبائل العربية الهلالية تتكون من بني سليم وهي أقوى هذه القبائل، وبني رياح وزغبه والاثيج هؤلاء هاجروا إلى سواحل إفريقيا لتهديد ومضايقة الصنهاجيين الذين أعلنوا استقلالهم عن الخلافة الفاطمية ، هذه الأخيرة أرسلت هؤلاء الأعراب لتخريب وتدمير وجود الصنهاجي. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، العبر والديوان المبتدأ، ج 6، ص 205.

[2] – القلعة العاصمة الأولى للدولة الحمادية الصنهاجية ،تم بناءها سنة (389 هـ / 07–1008 م) بجبل كتامة أو جبل عجيسة استغرق بناءها عامين. ينظر: عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو الجزء من كتاب المماليك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 86.

[3] –صالح الأمير الحمادي "المنصور" بني هلال على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من الحبوب والثمار. ينظر: محمد حسن – المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي – ج 1 – جامعة تونس الأولى – 1999 م – ص 35 ، 36.

[4]– تأسيس الدولة الموحدية. ينظر: عبد الواحد المراكشي – المعجب في تلخيص أخبار العرب تح : خليل عمران منصور – ط 1 – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – 1998 م.

[5]– عندما رجع ابن تومرت مرة ثانية إلى بجاية وعند وصوله على باب البحر أحد أبواب المدينة سكب الخمر وقال: "المؤمن ثمار والكافر خمار". ينظر: البيذق أبو بكر علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت – تح عبد الحميد حاجيات، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – 1986، ص 36.

[6]– هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمير بن موسى بن عبد الله بن يحي بن ورينغ بن صطفور اوكومية إخوة لماية, ينظر إلى: عبد الرحمن ابن خلدون العبر – ج 6 – ص 149.

[7]– بنو غانية من أعيان الملثمين المرابطين، امتلكوا جزيرة ميورقة أحد جزر الجزائر الشرقية (البليار) وأول ملوكها إسحاق بن محمد بن غانية وبعد وفاته خلفه ابنه علي بن إسحاق بن غانية حتى سنة 600 هـ، الذي هاجم قواعد الموحدين منطلقا من جزيرة ميورقة هذه الجزيرة التي طولها 40 كلم من أخصب الأراضي، إلى جانب جزيرة منورقة واليابسة وأول من فتحها عبد الله بن موسى بن نصير، اتخذ بنو غانية ميورقة كحصن منيع لمواجهة الموحدين و الأساطيل. ينظر: ابن الأثير، الكامل في تاريخ – ج 1 – ص 128، عبد الواحد المراكشي، المعجب – ص 28، ابن السعيد المغربي المغرب في حلى

المغرب، ج 1، تحقيق شوقي ضيف – ط 2، مصر _ دار المعارف – 1946 م – ص 466، أبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي تاريخ ميورقة، تحقيق محمد بن عامر – ط 1 – بيروت – لبنان – دار الكتب العلمية – 2007 م – ص 28 – علي محمد الصلابي – دولة الموحدين – ص 196

[8] –ابن الأثير علي بن محمد بن الكريم الجزيري، الكامل في تاريخ – ج 11 – دار البيروت للطباعة والنشر – بيروت، لبنان – 1982 – ص508.

[9] – –عبد الرحمن ابن خلدون – العبر – ج 6 – ص 226.

[10] – ابن عذارى المراكشي – البيان المغرب – قسم الموحدين – ص 181.

[11]– قراقوش أو قراقش هو شرف الدين قراقوش الأرمي مملوك الملك المظفر تقي الدين شاهنشاه بن شادي أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون – العبر – ج 6 – ص 227.

[12]– أبي المطرف أحمد بن عمير المخزومي – تاريخ ميورقة – ص 28.

[13]– ينظر في تعين أبي عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي واليا على إفريقية إلى: أبي محمد عبد الواحد التيجانى، رحلة التيجاني، ص 366، مؤلف مجهول، الحلل الموشية في أخبار المراكشية، ص 161، ابن عذارى، البيان، المغرب، ص 245.

[14] – هنتاتة: هي قبيلة من المغرب الأقصى جدهم أبي محمد بن حفص الهنتاتي

[15] – ينظر: ابن قنفذ القسنطينى، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح محمد الشاذلي النفير وعبد المجيد الترقي، الدار التونسية للنشر – 1968، ص 105.

[16]– هوارة بطن من بطون برانس ينتسبون إلى ولد هوار بن اوريغ بن برنس. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون – العبر – ج 6 – ص 136، 233.

[17] عبد الحميد حاجيات وآخرون، الجزائر في تاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، وزارة الثقافة والاتصال والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1980، ص 310.

[18] – علي بن أبي زرع – الأنيس المطرب – ص 248.

[19]– عبد الرحمن ابن خلدون – العبر، ج 6 – ص 335.

[20] – ينظر الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص 24 – 25، يذكر تاريخ آخر (628 هـ – 1231 م) بينما عبد الرحمن ابن خلدون – العبر ج 6 – ص 336 وابن قنفذ القسنطينى – الفارسية – ص 108 يتفقان على سنة (626 هـ – 1229م).

[21]– بعد وفاة الخليفة الحفصي المستنصر بالله سنة (675 هـ – 1277 م)، تولى من بعده ابنه يحيا الملقب (الواثق) الذي استوزر الأندلسيين بدلا من الهنتاتين، فأول وزير أندلسي يحيا عبد الملك الغافقي المكنى بأبي الحسن الأندلسي، هذا الأخير بدوره عين أخاه إدريس بن عبد الملك الغافقي على أشغاله ببجاية وعزل محمد بن هلال الهنتاتي عن ولايتها. ينظر: ابن أبي دينار – المؤنس – ص 160.

[22] – ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون – العبر – ج 6 – ص 381 وابن القنفذ القسنطينى الفارسية – ص 136.

[23] – ولد بمسيلة وتربى ببجاية، وكان جامعا لحرفة الخياطة ولقد خالط السحرة والمشعوذين الذين قالوا له أنه سيكون له شأن عظيم، ينظر ابن أبي الدينار – المؤنس – ص 161 وعبد الرحمن بن خلدون – العبر – ج 6 – ص 388 – الزركشي – تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 46.

[24]– في عهد الدّعي فرّ أبو زكريا بن إسحاق إبراهيم الذي كان ببجاية إلى صهره بتلمسان الملك الزياني عثمان بن يغمراسن. ينظر: محمد بن عبيد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، حققه حمد بو عياد، المكتبة الوطنية، الجزائر – 1980، ص 136.

[25] – عبد الرحمن ابن خلدون – العبر – ج 6 – ص 394.

[26]– ينظر التنسي، المصدر السابق، ص 137، أبي زكريا يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواحد، تحقيق عبد الحميد حاجيات – ج 1 – المكتبة الوطنية – الجزائر، 140 – 1980 م – ص 213.

[27]– التنسي – المصدر السابق – ص 284.،[1] محمد بن أحمد أبي راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غانم ج 1 منشورات CRAC، وهران – الجزائر – ص 160.

[28] – عبد الرحمن ابن خلدون – المقدمة – ج 1 – ط 1، الدار التونسية للنشر – تونس – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – الجزائر – 1984 – ص 367، 368

[29] – مفتاح خلفات – قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنيين (6 هـ – 9 هـ/12 م – 15 م) دراسة في دورها السياسي والحضاري، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع – 2011 – ص 421.

[30] – ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تصحيح أدولف فور، الرباط 1958، ص 448.

[31] – مفتاح خلفات – المرجع السابق – ص 431.

[32] – ينظر ترجمة إلى الغبريني – عنوان الدراية، ص 145 – 147.

[33] – ينظر الغبريني – نفس المصدر، ص 151، والمقري (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق حسان عباس، م 8 بيروت – (1388 هـ – 1988 م)، ج 11 – ص 189.

[34] – الرصاع، الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية (886 هـ / 1481 م)، تحقيق ودراسة محمد حسن، ص 103.

[35] –الزركشي – تاريخ الدولتين – ص 175.

[36] –أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحي بن أبي حجلة التلمساني، ديوان ابن حجلة، تحقيق ودراسة مجاهد مصطفى بهجت، كنوز للنشر والتوزيع.

[37]– عبد الرحمن ابن خلدون – المقدمة – ج 1 ص 368.

[38]–الزركشي–المصدر السابق، ص147

[39]– مفتاح الخلفات، نفس المرجع السابق، ص 429، 430.

[40]– حسن الوزان – وصف إفريقيا – ج 1 – ص 68.

[41] – ابن البيطار – الجامع، م 2 – ج 3 – ص 112.

[42] – محمد حسن – المدينة والبادية – ج 2 – ص 614.

[43] –الزركشي – تاريخ الدولتين – ص 45.

[44]– يحي بن خلدون – بغية الرواد – ص 217.

[45] –الزركشي – نفس المصدر – ص 45.

[46] – المَد هو مقدار حفنة يد من القمح والشعير. ينظر : ابن صاحب الصلاة (عبد الملك) – تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 3 – دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان – 1987 م – ص 352 – 353، 409.

[47] – محمد حسن – المدينة والبادية – ج 2 – ص 618.

[48] – الزركشي – تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية – ص 141.